MATIA

تحولات غير مؤكدة

قصة تناثرت بين برلين وفيينا

حسين خضور

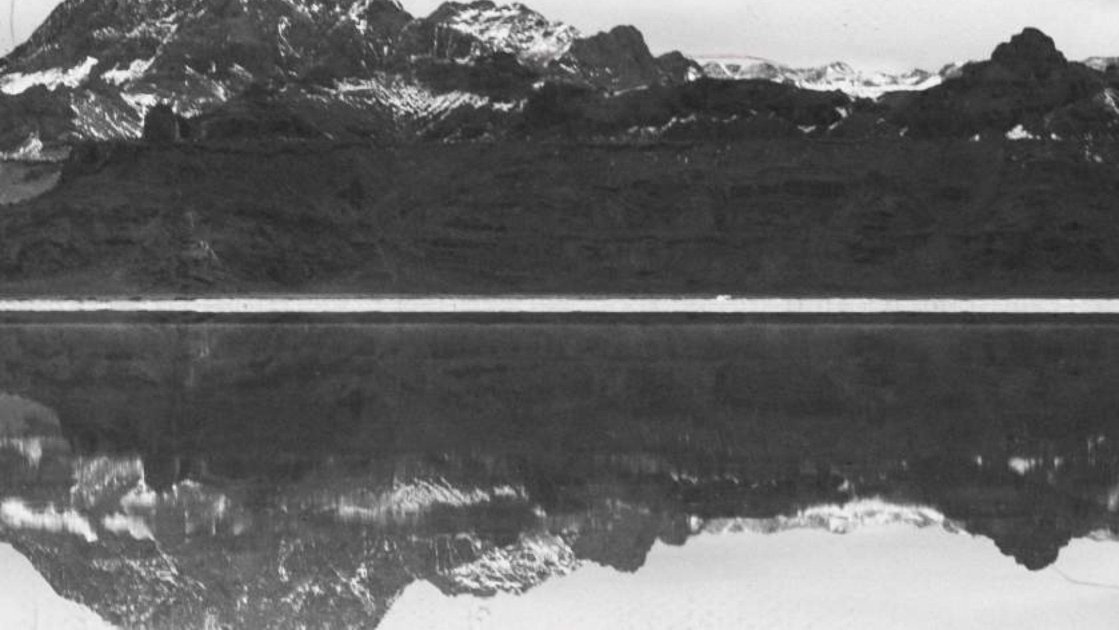

تحولات غير مؤكدة

قصة تناثرت بين برلين وفيينا

حسين خضور

MATIA

Matia Press
Cluj-Napoca, Romania, 2022
Athens, Greece, 2022
www.matia-press.com matiapress@hotmail.com

+30 698 621 6170

تحولات غير مؤكدة
المؤلف: حسين خضور
الناشر: ماتيا برس، ناشر مستقل وغير ربحي
تاريخ النشر: كانون الأوّل 2022
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
© حسين خضور

يمنع إعادة طباعة هذا الكِتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال، ورقياً أو إلكترونياً. ويمنع اقتباس أي جزء منه دون ذكر المصدر، واسم الكتاب، واسم المؤلف، واسم الناشر، وعام النشر. أي محاولة لنسخ أي محتوى من هذا الكتاب يترتب عليها مسؤولية قانونية.

تعود جميع أرباح هذا الكتاب إلى المؤلف بشكلٍ حصري، حيث إنّ ماتيا تعتبر غير ربحية بشكل كامل، ولا تتقاضى من المؤلفين أي مبالغ لقاء التنقيح والنشر أو أي نسبة من أرباح مبيعاتهم.

يمكن تحميل هذا الكتاب مجاناً من موقع ماتيا برس.

الإهداء

إلى زملاء السكن في زقاق لوهر

لمحة عن الكاتب

حسين خضّور عامل، فنان مستقل من مواليد مدينة حمص- سورية 1991، مقيم في مدينة فيينا منذ عام 2020، يتركز عمله الفني حول ظاهرة الاغتراب في المجتمع البشري.

خاض خضّور ثماني سنوات من التجارب المتنوعة في الرقص المعاصر والمسرح داخل سورية، الإمارات، لبنان، هولندا، النمسا، والصين. ونتج عن ذلك عمله المسرحي الأول في عام 2015 بعنوان زيارة ذاتية المقتبس بشكل حر عن رواية الحمامة للكاتب باتريك زوسكيند، ليقدمه في البداية داخل أوبرا دمشق، ثم طوره وأعاد تقديمه في المعهد العالي للفنون المسرحية في دمشق على خشبة مسرح فواز الساجر.

استكمل خضّور عمله في المسرح، مع دخول تيار الكتابة الإبداعية ضمن مساره الفني، ليراكم تجارب عدة خلال سبع سنوات في كتابة القصة، حتى وصوله إلى إصدار روايته الأولى بعنوان احتضار الاحتكاري الأكبر، عن دار الطليعة الجديدة في دمشق لعام 2022.

info@husseinkhadour.com

www.husseinkhadour.com

تحولات غير مؤكدة

قصة تناثرت بين برلين وفيينا

صيفُ عامِ 2019

توقَّفَت ماري على عتبةِ بابِ الحمَّام، تنظرُ إلى أليكس وماركوس الواقفان بالقربِ مِن المرحاضِ.

- أليكس: أرِني كيفَ تبولُ. مِن فضلك.
- ماركوس: كَرِّر ما قلتَهُ. إذا سمحت.
- أليكس: قصدْتُ بكلامي يهمُّنا أنْ نعلمَ، هل تبولُ واقفًا، أم جالسًا؟

نظرَ ماركوس بطرفِ عينِهِ نحوَ ماري (المستأجرةُ الأساسيَّةُ)، ليرَاها تتفرَّسُ فيهِ، ثُمَّ أجابَ على السؤالِ بتمثيلٍ صامتٍ، رفعَ غطاءَ المرحاضِ، أنزلَ سحابَ البنطالِ، ثُمَّ أصدرَ صوتًا يعبِّرُ عن خروجِ البولِ، رفعَ السَّحابَ، لينهي التَّمثيلَ بشدِّ السِّيفون.

- أليكس: إذاً نفهمُ من هذا المشهدِ، أنَّك تبولُ واقفاً.

لمْ ينطِقْ ماركوس بكلمةٍ، اكتفى برسمِ ابتسامةٍ مزجَت السُّخريَّةَ بالهشاشةِ فقط.

- ماري: من فضلِكُم، لِنعودَ إلى غرفةِ المعيشةِ.

تحرَّكَت ماري نحوَ غرفةِ المعيشةِ، لِيتبعْهَا أليكس كعادتِهِ منجذبًا وراءَ خطواتِهَا، كمَا تنجذبُ الحشرةُ نحوَ الضَّوءِ.

بقيَ ماركوس وحدَهُ في الحمامِ لِبضعِ ثواني، اشتدَّت في ذهنِهِ كلمةٌ واحدةٌ، أرادَ إخراجَها من فمِهِ، لكنَّهُ لم يفعلْ، لِيجدَ أنَّ قصباتِ صدرِهِ قد اتَّسعَت وهي تسحبُ الهواءَ من الحمَّامِ بعمقٍ، لِتدفعَ بجفونِ عينيهِ نحوَ إطباقٍ سريعٍ جعلَ الرُّؤيةَ مظلمةً، ثُمَ فتحَ جفونَهُ بالتَّدريجِ، وأخرجَ من صدرِهِ زفيرًا بطيئًا.

تحرَّكَ نحوَ غرفةِ المعيشةِ، رأَى ماري وأليكس جالسانِ على الأريكةِ بانتظارِ قدومِهِ، اقتربَ منهما قليلاً، توقفَ عندَ الكرسيّ الذي كانَ يجلسُ عليهِ قبلَ لحظاتٍ من دخولِ الحمَّامِ، لمْ يفكِّر بالجلوسِ من جديدٍ البتَّةَ، على الرُّغمِ من شعورِهِ بأنَّ ساقَيهِ خائِرَتان، بسببِ المقابلاتِ الكثيرةِ الَّتي أجرَها في هذا اليومِ باحثًا عن غرفةٍ ضمنَ شُقَّةٍ مشتركةٍ في مدينةِ برلين.

وضعَ يدَهُ على الكرسيّ، توقَّفَ نظرُهُ قليلًا عندَ جسدِ أليكس النحيفِ، ثُمَّ قال بنبرةِ صوتٍ فاترةٍ:

كان ينبغِي عليكِ يا آنسة ماري إضافةَ شرطِ التَّبولِ جلوسًا ضمنَ الشُّروطِ التي وضعتِها في إعلانِ السَّكنِ.

أرادَت ماري الرَّدَّ عليهِ، لكنَّ ماركوس قاطعَها، قائلًا: ليسَ لديَ وقتٌ.

خطفَ بيدِهِ هاتفَهُ من على الطاولةِ، ثُمَّ تحرَّكَ نحو بابِ الشُّقَةِ بخطواتٍ ظاهرُهَا متماسكٌ، لكنَّ باطنَها هشٌ من شدَّةِ بالإرهاقِ، لِيخرجَ أخيرًا من المكانِ، فيهبطُ الدَّرجَ الحلزونيّ للبناءِ، حاسمًا في ذهنِهِ قرارَهُ النهائيّ في الانتقالِ للعيشِ ضمنَ مدينةِ فيينا.

***

صيفُ عامِ 2020

-1-

نظرَت يوليا إلى صحنِ الزُّجاجِ الفارغِ الموجودِ أمامَها على طاولةِ المطبخِ، ثُمَّ سألَتْ بعدَما نفدَ صبرُها: أينَ صوفي؟

- توبي: أعطِني لحظةً واحدةً، شارفَتْ على الانتهاءِ منْ مَلءِ الاستمارةِ السَّخيفةِ.
- يوليا: هذا الأمرُ غريبٌ، تكتبُ لنَا أنَّها تريدُ أنْ تجتمعَ بنا، لأمرٍ مهمٍّ يتعلَّقُ بالسَّكنِ، لِتتأَخَّرَ علينا نصفَ ساعةٍ. (تَصمتُ لحظةً) هل قالَت لكَ أنَّها تريدُ الانتقالَ إلى شُقَّةٍ أُخرَى؟
- توبي: لَا لم تذكُر ذلك.
- يوليا: إذاً، لماذا كتبَت لنَا على المجموعةِ بطريقةٍ دراميَّةٍ؟
- توبي: هل نسيتِ طبعَهَا، إنَّها أميرةُ الدَّراما، تتحدث بحالة درامية دوماً.
- يوليا: لا هذا الطَّبعُ جديدٌ، لم تكنْ هكذا قبلَ سنةٍ.

- توبي: بلى.
- يوليا: لا.
- توبي: أقصدُ نعم، هكذا كان طبعُها، لكنَّهُ لم يكنْ واضحًا، فعلاقَتُها مع حبيبِهَا السَّابقِ، كانَت تُخفِي عنَّا هذا الطَّبعَ.

(خرجَت صوفي من غرفَتِها المطلَّةِ مباشرةً على المطبخِ)

قالَ توبي بعدمَا أغلقَ اللابتوب: صوفي أنتِ هُنا!

- يوليا: كُنتِ نائمةً؟

ردت صوفي بنبرةِ صوتٍ فاترةٍ:

اعذرُوني، لم انتبِه إلى صوتِ المنبهِ، لا أعلمُ ما حلَّ بي.

- توبي: كلُّ شيءٍ على ما يُرام. ما رأيُكم أنْ نشربَ الاسبريسو؟
- يوليا: فكرةٌ جيدةٌ.
- صوفي: أنا سأحضِّرُها.

وافقَ توبي بسرعةٍ، ليفتحَ اللابتوب من جديدٍ. قالت يوليا مخاطبةً صوفي:

من فضلِكِ، ضَعِي غلايَّةَ الاسبريسو على أعلَى درجةِ حرارةٍ.

- صوفي: لكنَّ مذاقَ القهوةِ لن يكونَ لذيذًا.
- يوليا: أعلمُ ذلك، لا بدَّ لنا من أنْ نَكسِبَ بعضَ الوقتِ، ربَّما قد نسيتِ أنَّ هناكَ موعدَ محادثةٍ عن شُقَّتِنَا.
- صوفي: آه صحيحٌ، أنا أعتذرُ منكم، لقد كانَت رحلةُ القطارِ مرهقةً؛ بسببِ التَّأخر في أكثرِ من محطةٍ.

عقَّبَ توبي على الحديثِ:

دومًا شبكةُ القطاراتِ الألمانيَّةِ تتأخَّرُ. (أغلقَ اللابتوب)، ثُمَّ تابعَ كلامَهُ: انتهيت من الاستمارة، أخيراً.

(لمْ تتفاعَل الفتياتُ معَهُ)، وضعَت صوفي غلايَّةَ الاسبريسو على الغازِ الحراريّ، ثُمَّ جلسَت على كرسيٍّ خشبيٍّ في زاويةِ الطاولةِ.

سألَت يوليا أثناءَ نظرِهَا مجددًا إلى صحنِ الزُّجاجِ الفارِغِ:

من أينَ أَتَى هذا الصحنُ؟

ردَّت صوفي بنبرةِ صوتٍ منعشَةٍ:

وجدتُ على المدخلِ الخارجيِّ للبناءِ صندوقًا خشبيًا كُتِبَ عليهِ (مجانًا)، كانَ الصَّحنُ في داخلِهِ، وأيضًا كانَ هناكَ أكوابًا عدَّة، وسكاكينَ جميلةً، يبدُو أنَّه كانَ هناكَ الكثيرُ منهَا، وربما سبقنا الناس في الشارع إليها.

- توبي: رأَيتُ صندوقَ الخشبِ، قبلَ أن يوضعَ على المدخلِ...

قاطَعَته صوفي متعجبةً منهُ:

لماذا لم تجلِب شيئًا إلى شُقَّتِنَا!!!

- توبي: لأنَّني رأيتُهُ بيدِ كريستا.
- صوفي: ماذا تقصدُ؟
- توبي: أقصدُ أنَّ كريستا الأختَ الكُبرَى لمالكةِ البناءِ، قالَت لي بعدَما سألتُها عن أمرِ الصندوقِ:

جارُكُم ماركوس القاطِنُ في الشُّقَةِ المواجِهةِ لباب شُقَّتِكُم، تُوفَى قبلَ شهرٍ، واليومَ قرَّرنَا أن نُنَظِّفَ الشُّقَة لِنعرِضَها من جديدِ للإيجارِ.

- يوليا: آآآآه، لااااا، كيفَ حصلَ ذلكَ؟ إنَّهُ لايزالُ في سِنِّ الشَّبابِ.

سألَت صوفي بنبرةِ صوتٍ ترتجفُ قليلًا:

أينَ تُوفي؟

ردَّ توبي بعدَ لحظةِ صمتٍ قصيرةٍ:

أخبرَتنِي كريستا، أنَّه تُوفَى بسكتةٍ قلبيَّةٍ في شُقَّتِهِ أثناءَ نومِهِ.

غلَت الاسبريسو بصوتِهَا المعتادِ الشَّبيهُ بانفجارِ بركانٍ. نهضَت صوفي، أطفَأَتِ الغازَ، فتحَت درفَةَ المطبخِ، غَضَّت نظرَهَا عن الأكوابِ الَّتي جلبَتها من صندوقِ الخشبِ، وبحركاتٍ سريعةٍ تناولَت أكوابًا قديمةً، بدأَت تصبُّ القهوةَ على مهلٍ، ثمَّ تقولُ بنبرةِ صوتٍ ضعيفةٍ:

مؤسفٌ هذا الخبرُ، نحنُ نعيشُ هنا في هذه الشُّقةِ منذُ سنةٍ، كُنَّا نتواصلُ مع المستأجرِ القديمِ، لكنَّنا، لم نفكِّر بدعوةِ المستأجرِ الجديدِ لِيشربَ معنَا فنجانَ قهوةٍ لِمَرَّةٍ واحدةٍ على الأقلِّ.

- توبي: صحيحٌ، لكنَّ ماركوس يكبرُنا سنًا.
- يوليا: بصراحةٍ، أنا صادفتُهُ مرةً واحدةً فقط.
- صوفي: صادفته مرةً أو ربَّما مرَّتين.

ردَّ توبي في محاولةٍ جديدةٍ منهُ لتخفيفِ وطأةِ الحالة التي سيطرت عليهم: لأنَّهُ كانَ يعملُ في مناوباتٍ ليليَّةٍ لصالحِ مستودعاتِ أمازون، بحسبِ ما أخبرَتنِي كريستا ذاتَ مرَّةٍ، لذلك منَ الطَّبيعي ألَّا نصادِفَهُ كثيرًا.

وضَعَت صوفي أكوابَ القهوةِ، ثُمَّ جلسَت لِتقولَ:

توبي، يوليا، أنتُما تعلمان كَم أحبُّ العيشَ معكُما، لكنَّني منذُ فترةٍ بدأَتُ أشعرُ بكميَّةٍ الرَّتابةِ في شارِعِنَا، وفي كاملِ الحيّ. بكلِّ صراحةٍ فيينا تضغطُ عليَّ، أشعرُ أنَّها تغيَّرَت بعدَ جائحَةِ كوفيد، لذلك قرَّرتُ الانتقالَ إلى برلين عندَ نهايةِ هذا الشَّهرِ.

قالَت يوليا بنبرةِ صوتٍ تتصنَّعُ القلقَ، بعدَما رسَمَت في ذهنِهَا بومضةٍ سريعةٍ أنَّها ستنتقلُ من غرفَتِها المستطيلةِ الصغيرةِ، إلى غرفةِ صوفي الواسعةِ:

هذا صحيحٌ، تبيَّنَ لنَا خلالَ الجائحةِ، كميَّةَ اعتمادِ مدينةِ فيينا على السِّياحةِ، يمكِنُنا ملاحظةُ حجمِ المساحاتِ الفارغةِ الكثيرةِ في كلِّ مكانٍ، لذلك أفهمُ ما تفكرينَ بهِ.

صمتْ

قالَ توبي ممازحًا الصمتَ الَّذي سادَ للحظةٍ: سنعيدُ ترتيبَ خطِّ السِّكةِ الحديدةِ، لنربِطَ فيينا، ببرلين، من جديدٍ، كمَا كانَت قبلَ الجائحَةِ، برلين تدفعُ بمدينةِ فيينا للتَّحرُّكِ بشكلٍ عشوائيٍّ، وفيينا تدفعُ بمدينةِ برلين للتَّحرُّكِ نحوَ الأمامِ بشكلٍ منتظمٍ.

***

ربيعُ عامِ 2020

-2-

تدفَّقَ ماءٌ باردٌ على أصابعِ يدِ ماركوس، انتظرَ قليلًا ريثَمَا تعتَدِلُ حرارَتُهُ، لِتَبدأَ أصابِعَهُ بِتحَسُّسِ التَّبدُّلِ، فجمعَ الماءَ بين راحَتَي يدَيهِ، قرَّبَ وجهَهُ من حوضِ المِغسَلَةِ، وبرفقٍ دفعَ بالماءِ نحوَهُ، لتعودَ يدَيهِ من جديدٍ لِجلبِ المزيدِ، لكنَّ حرارةَ الماءِ اشتَدَّت، فسحبَهَا بسرعةٍ، ليقذِفَ من فَمِهِ شتيمةً لصنبور الماء بسببِ تبدُّلهِ السَّريـعِ.

فتحَ الصُّنبورَ الثَّاني، لِيخلِطَ الماءَ البارِدَ مع الحَّارِ، انتظرَ قليلًا، اقترَبَت أصابِعُهُ من جديدٍ نحوَ الماءِ، تلاشَت فورَةُ الغضبِ، بعدمَا غسلَ وجهَهُ بالماءِ الفاتِرِ.

عادَ إلى المطبخِ، وضعَ غلايَّةَ الاسبريسو فوقَ الغازِ الحراريّ على أعلى درجةِ حرارةٍ.

فتحَ الثلاجَةَ، زفرَ منزعجًا لِنسيانِهِ شراءَ الفَطورِ، فكَّرَ بسرعةٍ عن حلٍّ يكسِبُ خلالَهُ الوقتَ، فاليومَ هو أَوَّلُ يومِ عملٍ لَهُ في

مناوباتِ المستودعِ الصباحيَّةِ، بعدما عَمِلَ لأكثرَ من ثلاثةِ أشهرٍ في مناوباتٍ ليليَّةٍ.

خفَّضَ درجةَ الحرارةِ إلى ما دونِ الوسطِ تحتَ الغلايةِ، لِيخطِف رجلَهُ نحوَ المحطةِ القريبةِ من بيتِهِ، فهناكَ متاجرُ خبزٍ عدَّةٌ.

كانَ الشارعُ شبهَ فارغٍ، فاليومُ هو السبتُ، والشمسُ على وشكِ البزوغِ.

دخلَ المحطَّةَ كأنَّهُ يدخلُ قطارَ الأنفاقِ في اللَّحظَةِ الأخيرةِ، حيثُ تصدرُ من أبوابِهِ أصواتُ تنبيهٍ، مع إضاءةٍ حمراءَ كالَّتي نرَاهَا لدَى سيارةِ الإسعافِ.

وقفَ ماركوس مواجهًا لزجاجِ المخبزِ الأماميِّ، من دونِ أنْ يَرُدَّ على تحيةِ بائعِ التَّجزئَةِ، حدَّقَ بسرعةٍ بحثًا عمَّا سيطلبُ، ليصلَ إلى ذاكرَتِهِ، قبلَ أن يصلَ إلى مسمعِه، صوتٌ مميَّزٌ، رافقَ دربَهُ طيلةَ الإغلاقِ الأوَّلِ لِجائحَةِ كوفيد، نَظَرَ بطرفِ عينِهِ ليتأكَّدَ من تطابُقِ الصَّوتِ مع صُورةِ الوَجهِ، حاولَ كثيرًا خلالَ الشَّهرِ الماضي أن يمحُوهَا من ذاكِرَتِهِ.

كانَ صاحبَ الصوتِ أيضًا ينظرُ إليهِ بطرفِ عينِهِ، فتواصلَت أطرافُ العيونِ لثوانٍ عدَّةٍ، بدَت لهُمَا كأنَّها دقائقٌ.

انتابَهُمَا شعورُ من يحاولُ الغشَّ في الامتحانِ عبرَ خطفِ نظرِهِ نحوَ ورقةِ زميلِهِ.

زادَ التَّوترُ قليلًا، كأنَّ وقتَ الامتحانِ قاربَ على الانتهاءِ، ممَّا دفعَ بماركوس بالمخاطرةِ في رفعِ نظرِهِ أكثرَ، فوجدَ الإجابةَ كمَا توقعَهَا: مصدرُ الصَّوتِ صديقُهُ.

كانَ بائعُ التَّجزئةِ في المخبزِ قد صرفَ نظرَهُ عن ماركوس، من دونِ أيِّ استغرابٍ فقد اعتادَ أثناءَ عملِهِ في المحطةِ رؤيةَ الكثيرِ من غريبِي الأطوارِ، فتحرَّكَ إلى داخلِ المتجرِ قليلًا، لِيكملَ عملَهُ في تحضيرِ بعضِ المخبوزاتِ.

توجَّهَ صديقُ ماركوس بالحديثِ إليهِ وهوَ لا يزالُ ينظرُ نحوَهُ من طرفِ عينِهِ:

حظرتَنِي من كافَةِ وسائلِ التَّواصلِ الاجتماعِي، وقطعْتَ كاملَ السبلِ أمامَ ضرورَةِ لقاءٍ يجمعُنَا، لكنَّنا لا نستطيعُ -يا صديقي- حظرَ المصادفَةِ.

بعدَ لحظةِ صمتٍ قصيرةٍ، ردَّ ماركوس عليهِ بنبرةِ صوتٍ باردةٍ:

لم أستطِع حظرَ المصادفةِ، كونَها حصلَت هنا في مدينةِ فيينا، وليسَ في مدينةِ برلين.

قالَ صديقُ ماركوس أثناءَ رفعِهِ كاملَ نظرِهِ نحوَهُ:

أنتَ كمَا أنتَ، ولا أحدَ غيرُك يدرِكُ معنَى الضَّغطِ الَّذي أعانِيه. ماركوس خلافُنَا المعلَّقُ، حولَ طبيعِي، غيَّرَ من حالِي أصبحتُ مثلَ جمرةٍ حارَّةٍ تعيشُ تحتَ الصَّفيحِ.

ما إِن وصلَ صديقُهُ إلى نهايةِ جملَتِهِ، حتَّى بدأَ يظهرُ على ماركوس شيءٌ من علاماتِ القلقِ، كونَهُ تذكَّرَ غلايةَ الاسبريسو على الغازِ.

أرادَ جسدُهُ المغادرَةَ بسرعةٍ تنفيذًا لأوامرِ قسمِ الطوارئِ في دماغِهِ، لكنَّ عزَّةَ نفسِهِ ثبَّطَتْ جسدَهُ عن الحركةِ، فقد دخلَ صديقُهُ بخطابٍ مستفزٍّ لكبريائِهِ، جعلَهُ يكابرُ الأفكارَ المحذِّرَةِ

بشدَّةٍ من العواقِبِ المحتملَةِ في حالِ لم يتحرَّك مسرعًا نحوَ إطفاءِ الغازِ تحتَ الغلَّايةِ. فتشبثَت نفسُهُ بمكانِهَا أكثرَ، كأنَّها تعيشُ لحظةَ إثباتِ الوجودِ، ولكي تُخفِّفَ عن توتُّر قسمِ الطوارِئِ، دفعَت بهِ للتَّفكيرِ بشكلٍ رياضيٍّ، يحسِبُ ويتخيَّلُ بالضبطِ كم منَ الوقتِ ستحتاجُ غلَّايةُ الاسبريسو حتَّى تتبخَّرَ القهوةُ من داخلِها، وتبدأَ قاعدَتُها بالاحتراقِ.

صحيحٌ أنَّ هذهِ الحيلةُ نفعَتهُ خلالَ ومضةٍ قصيرةٍ، لكنَّ الوضعَ زادَ تفاقمًا، فتبدَّلَت علاماتُ القلقِ من عينَيهِ، ليحلَّ محلَّها حالةٌ من الذُّعرِ، فظنَّ صديقُهُ أنَّ حديثَهُ هو الَّذي صنعَ ذلكَ الأثرَ بهِ، فبدأَ يخفِّفُ من تدفُّقِ كلامهِ بالتَّدريجِ، حتَّى أنتابَهُ شعورٌ غامرٌ بالفرحِ أخفاهُ في باطنه على الفورِ، لِيتَهَيَّأَ لماركوس أنَّ صديقَهُ أخفى ذلك الفرحَ خوفًا من أن يبدوَ عليهِ علاماتِ الانغماسِ الذُّكوريِّ، كمَا حصلَ في آخرِ لقاءٍ جمعَ بينَهُما، وقتَما جاءَ صديقُهُ ملبيًا طلبَهُ في مساعدَتِهِ أثناءَ أوَّلِ موعدٍ غراميٍّ لَهُ في مدينةِ فيينا مع أنثَى أصغرُ منهُ بقليلٍ، في حينِهِ تهيَّأَ لماركوس أن صديقَهُ قد سحبَ أفكارَهُ من دماغِهِ، كاسرًا بذلكَ حضورَهُ أمامَ حقلِ جاذبِيَّةِ الأنثَى.

تحرَّكَ جسدُ ماركوس نحوَ صديقِهِ، وقرَّبَ شفتيهِ من أُذُنِ صديقِهِ، هامسًا فيهَا بنبرةِ صوتٍ حادةٍ:

أنتَ وهمٌ.

تنفَّسَ ببطءٍ، ثُمَّ تحرَّكَ بسرعةٍ نحوَ شُقَّتِهِ، دخلَهَا، وجدَ القهوةَ قد تبخَّرَت، وقاعدةُ الغلَّايةِ تحوَّلَت إلى جمرةٍ حارَّةٍ، أطفأَ الغازِ على الفورِ، دخلَ غرفةَ النَّومِ، تمدَّدَ على السَّريرِ، تناولَ هاتِفَهُ، كتبَ رسالةَ بريدٍ للشَّركةِ يُعلِمُهُم بأنَّ حرارَتَهُ مرتفعَةٌ، ويحتاجُ للرَّاحةِ، أغمضَ عينَيهِ لثوانٍ عدَّةٍ، ثمَّ أمسكَ الهاتفَ من جديدٍ، ليضبطَ المنبِّهَ على منتصفِ اليومِ، أغلقَ الشَّاشةَ، فتحهَا من جديدٍ بسرعةٍ، حذفَ خاصيَّةَ غفوةِ المنبِّهِ، ثُمَّ قالَ لنفسِهِ: لِيُطلِقَ هذا الجهازُ اللَّعينُ صوتَ رنينٍ دونَ توقُّفٍ، لا بدَّ لي من الاستيقاظِ.

أغمضَ عينَيهِ، حاولَ الاسترخاءَ، فمانَعتهُ ضرباتُ قلبِهِ المضطَرِبَةُ، جرَّبَ التَّنفُّسَ على مهلٍ، دفعَ بذاكرتِهِ لاستحضارِ أيَّ صورةٍ جميلةٍ، أيَّ ذكرَى عذبةٍ، وبالفعلِ استطاعَت الذَّاكرةُ جلبَهَا، كانَت ذكرَى من أيَّامِ طفولَتِهِ، حيثُ كانَ يجلِسُ على ضفَّةِ

النَّهرِ مع صديقِهِ الألمانيِّ ماكس، وصديقَتِه المصريَّة شيرين. كانُوا يطقطقون بذورَ عبَّادِ الشَّمسِ الَّتي جلَبَتهَا شرين معَها من مصرَ.

تذكَّرَ ماركوس ومضاتٍ من ذلك المشوارِ، ليتوقَّفَ عندَ أكثرِ صورةٍ علقَت في ذهنِهِ، حيثُ كانَ ماكس يجلِسُ القرفصاءَ، ويطقطقُ البذورَ بسرعةٍ معتمدًا على سنَيهِ الأماميَين، لِيبدُوَ وجهُهُ كالقنفُذِ كمَا تخيَّلَهُ ماركوس.

ما إِن اكتملَت هذِهِ الذكرَى، حتَّى شعرَ برغبةٍ عارمةٍ بالضَّحكِ، فلم تخرُج تلكَ الضِّحكَةُ من داخلِهِ، ممَّا حرَّضَ الرَّغبَة أكثرَ على الإصرارِ بدفعِهِ ليضحكَ، لكنَّه أصرَّ أكثرَ ألَّا يضحكَ، وما بينَ صِّراعٍ في إخراجِ الضحكةِ، وكبتِهَا، وجدَ ماركوس نفسَهُ يضحكُ بعمقٍ من قلبه، من دونِ إصدارِ أيِّ صوتٍ، ليبدُوَ عليهِ أنَّهُ عبَّرَ عن جوهرِ ما يقالُ لدَى شعوبِ الشَّرقِ:

ضحكَ حتَّى الموتِ.

اللَّحظةُ الأخيرةُ في حياةِ ماركوس الشَّاب لخَّصَت كاملَ معاناتِهِ، حيثُ كانَت أشدُّ الدُّموعِ تبقَى داخلَ عينَيهِ.

أعظمُ الصَّرخاتِ تبقَى داخلَ حنجرَتِهِ.

أهمُّ الكلماتِ تبقَى في فمِهِ.

توقَّفَ قلبُ ماركوس، ليعلِنَ وفاتَهُ، وما هِي إلَّا ساعاتٍ حتَّى استيقظَ منبِّهُ هاتفِهِ ليرنَّ دونَ انقطاعٍ، كأنَّه كلبٌ ينبحُ بذعرٍ محاولًا إيقاظَ صاحبِهِ.

***

صيفُ عامِ 2022

دخلَتِ صوفي القطارَ بسرعةٍ، جلسَتْ في مقعدِها قبلَ انطلاقِ الرِّحلةِ بعشرِ دقائقَ، بدأَتْ أصابعُ يدِها تتحرَّكُ ضمنَ رتابةٍ تتناسَبُ مع موسيقَا علقَتْ في ذهنِها منذُ الصَّباحِ، عندمَا كانَتْ تتناولُ الفَطورَ معَ أخيهَا الكبيرِ داخلَ شقتهِ الجديدةِ الواقعةِ في الحيِّ السَّادسَ عشرَ ضمنَ مدينةِ فيينا.

الموسيقَا لم تكنْ فيها تلكَ الرَّتابةَ، لكنَّ الصُّورةَ المرافقةَ لهَا سحبَتْهَا نحوَ تعزيزِ ذلكَ الإحساسِ المضجرِ، فقد كانَ أخوها يجلسُ مواجهًا لها، يمسكُ بيدِهِ ملعقةً صغيرةً، يضربُ بها برفقٍ

بيضةً وُضِعَتْ في شمعدانٍ صغيرٍ، ثمَّ يقشِّرُ جزءَهَا العلوِيَّ ببطءٍ، ليمسِكَ الملعقةَ من جديدٍ، ثمَّ يتناولُهَا لقمةً وراءَ لقمةٍ يفصلُ بينهمَا نصفُ ابتسامةٍ تتفاعلُ بتنافرٍ مع موسيقَا فرانز شوبرت.

بعدَ انتهاءِ الفَطورِ، حاولَ أخوهَا الذَّهابَ معهَا إلى محطَّةِ القطارِ المركزيَّةِ، حتَّى يقومَ بواجبِهِ -على حدِّ تعبيرِهِ الَّذي يستخدمُهُ دومًا مع أختِهِ الصَّغيرةِ-، لكنَّ صوفي هذهِ المرَّةَ تهرَّبَتْ منهُ، بقولِهَا لهُ وهي تتصنَّعُ حالةَ التَّشوُّشِ: نسيتُ خاتمِي عند صديقي توبي، سأطلبُ تكسي، ومن هناكَ سأكملُ طريقي إلى المحطَّةِ المركزيَّةِ.

لعبَتْ صوفي أمامَهُ دورَ الأختِ المستهترةِ في اعتنائِهَا بهديَّتِهِ الثَّمينةِ، لتودِّعَهُ بنظرةِ طفلةٍ شعرَتْ بذنبِهَا.

شعرَ أخوهَا ببعضِ الضِّيقِ من تصرُّفِهَا الأخيرِ، ليسَ بشأنِ الخاتمِ، إنَّما الواجبُ هو من له مكانةٌ خاصَّةٌ هذه المرَّةَ، بسببِ زيارتِهَا العفويَّةِ لهُ، لسببين في الوقتِ ذاتِهِ: مساعدتَهُ في ترتيبِ شقَّتِهِ الجديدةِ، وتخفيفُ حدَّةِ الإرهاقِ الكبيرِ الَّذي عاناهُ خلالَ كتابتِهِ لأطروحةِ الدُّكتوراه.

ما إنْ خرجَتْ صوفي من منزلِهِ، حتَّى عادَ إليهَا شيءٌ من مظهرِهَا المائلِ للاتِّزانِ، ليبقَى هو ضمنَ حالةِ تشوُّشٍ، محاولًا ترتيبَ مشاعرِهِ حولَ التَّغيُّراتِ الَّتي طرأَتْ على شخصيَّةِ أختِهِ الصَّغيرةِ، فتساءلَ وهو يسقي نباتاتِهِ، هل انفصالُهَا عن حبيبتِـهَا لهُ أثرٌ في ذلكَ؟ أم انتقالُهَا إلى برلين هو السَّببُ الأساسيُّ؟

توقَّفَ للحظةٍ لتذكُّرِ حبيبتِـهَا السَّابقةِ من جديدٍ، محاولًا في هذهِ المرَّةِ بجديَّةٍ البحثَ عن أيِّ شيءٍ سيِّءٍ في شخصيَّتِهَا، فلم يعثرْ إلَّا على طيبتِهَا.

أثناءَ نقلِهِ حوضَ الزَّرعِ الفارغِ، قالَ مخاطبًا نفسَهُ بنبرةِ صوتٍ قلقةٍ: المشكلةُ ليسَتْ منهَا، ولا من أختي، ولا من أيِّ شخصٍ آخرَ، إنَّما من نظامٍ يتضخَّمُ، أكثرَ فأكثرَ.

وضعَ الحوضَ على الرَّفِّ، دخل غرفةَ النَّومِ، توقَّفَ في منتصفِهَا، نظرَ إلى الخارجِ من خلالِ النَّافذةِ، تأمَّلَ قليلًا أثرَ المطرِ في ترطيبِ كتلةِ الإسمنتِ قليلًا، تحرَّكَ بخطواتٍ بطيئةٍ نحو النَّافذةِ، تملَّكتْهُ رغبةٌ شديدةٌ في فتحِهَا، ولم يفعلْ ذلك، ربَّما

لشعورِهِ بما سيصلُ إلى سمعِهِ من ضوضاءِ الشَّارعِ الَّتي لم يألفْهَا بعدُ.

تبعثرَ نظرُهُ في تفاصيلِ الشَّارعِ، لكنَّ قدومَ الترام بسرعةٍ في منتصفِ الشَّارعِ، شدَّ النَّظر إليهِ، ليتابعَ مسيرَهُ المتَّصل بالكهرباءِ على القضبانِ الحديديَّةِ إلى أن تلاشَى، فتركَ أثرًا في مخيلتِهِ، كالَّذي يتركُهُ تلاشِي شهابٍ عبرَ الفضاءَ.

عادَ إلى المطبخِ، نظرَ إلى جدرانِهِ، تخيَّلَ أنَّهَا شفَّافةٌ، فرأَى داخلَهَا شبكةَ الكابلاتِ الكهربائيَّةِ.

تحدَّثَ كأنَّهُ حكيمٌ في طبِّ الجهازِ العصبيّ:

هندسةُ الكهرباءِ فيهَا جانبٌ إبداعيٌ كبيرٌ، تنسجُ الشَّبكةُ الكهربائيَّةُ داخلَ جدرانِ المنزلِ، كأَنَّهَا تتعاملُ مع جسمٍ بشريٍّ، تعيدُ تكوينَ جملتِهِ العصبيَّةِ.

(قطَّبَ حاجبَيهِ للحظةٍ)، تابعَ حديثَهُ: أعصابُ البيتِ موجودةٌ داخلَ جدرانِهِ، إذا اشتدَ الضَّغطُ عليهَا، ستتلفُ.

جلسَ على مكتبِهِ، بعدمَا تناولَ بيدِهِ ورقةً وقلمًا، كتبَ بخطٍّ هشٍّ:

ظاهرُ المدينةِ يزدادُ ضجيجًا، عمقُ المدينةِ يزدادُ رتابةً. ظاهرُ المدينةِ غيرُ منسجمٍ مع عمقِهَا.

يبدُو أنَّنا عندَمَا ندركُ انعكاسَ عمقِ المدينةِ داخلَ أيِّ شخصٍ قريبٍ منَّا، نحاولُ الهربَ منهُ بأيِّ طريقةٍ كانَتْ، كأنَّ قلبَهُ أصبحَ غريبًا عنَّا. حتَّى عيونُهُ لم نعدْ نألفُهَا، تتفرَّعُ في بياضِهَا شرايينٌ حمراءُ، ننظرُ إليهِ كأنّنا ننظرُ إلى شخصٍ غريبٍ عنَّا أثناءَ رحلتِنَا نحوَ العملِ داخلَ قطارِ أنفاقٍ.

توقَّفَ عن الكتابةِ، أرادَ قراءةَ ما كتبَهُ، لكنْ لم يفعلْ ذلكَ، فتركيزُهُ كانَ على خطِّهِ. ارتبكَ أمامَهُ، لم يتعرَّفْ عليهِ، كان غرِيبًا عنهُ. حاولَ أن يدركَ طبيعتَهُ، حرَّكَ ذاكرتَهُ بشدَّةٍ، فمانعتْهُ في استحضارِ صورةٍ تعبِّرُ عنهُ، لكنَّ حدسَهُ أسعفهُ في إدراكِ ماهيتِهِ، فقد كان شبيهًا بخطِّهِ قبلَ دخولِهِ إِلَى السُّوقِ الأكاديميَّةِ، حيثُ كانَ قلمهُ يرقصُ على السَّطرِ، كراقصِ باليه، منسجمًا مع قواعدِ الرَّقصِ، لإيصالِ المعنَى.

أغمضَ عينيهِ، أخذَ ببطءٍ شهيقًا عميقًا، ثمَّ أخرجَهُ من صدره بسرعةٍ، بعدمَا تناهى إلى سمعِهِ صوتُ اهتزازِ هاتفِهِ الموجودِ على طاولةِ المطبخِ.

استمرَّ الاهتزازُ، تحرَّكَ نحوَهُ، توقَّعَ أنَّ أختَهُ صوفي هي من يتَّصلُ بهِ، أمسكَ الهاتفَ، ارتبكَ قليلًا، فقد كانَتْ بالفعلِ صوفي، لكنَّها تتَّصلُ به مكالمةً مرئيَّةً.

توقَّفَ الاهتزازُ، قالَ مخاطبًا نفسَهُ: غريبٌ، ليسَ مِن عادتِهَا استِخدَامُ الاتِّصَالِ المرئي لمكالمتِي. على كلِّ حالٍ في وقتٍ لاحقٍ سأخبرهَا أنَّ المكالمةَ فاتَتنِي، لأنِّي خرجْتُ منْ شقَّتي، من دونِ اصطحابِ هاتفي.

***

وصلَتْ صوفي إلى المحطَّةِ المركزيَّةِ بالمواصلاتِ العامَّةِ، توقَّفَتْ عندَ رصيفِ القطارِ، فتحَتْ حقيبتَها، أخرجَتْ منهَا هديَّةَ أخيهَا المميَّزةَ (الخاتمَ السِّحريَ) كمَا وصفَهُ لها، شعرَتْ بهدوءٍ منعشٍ، وضعَتِ الخاتمَ في إصبعِهَا، دخلَتِ القطارَ بسرعةٍ، جلسَتْ في مقعدهَا قبلَ انطلاقِ الرِّحلةِ بعشرِ دقائقَ.

تحرَّكَ القطارُ، تلاشَتْ من ذاكرتِهَا رتابةُ موسيقَا الصَّباحِ، توقَّفَتْ أصابعُهَا عن الحركةِ الرَّتيبةِ.

رفعَتْ يدهَا، نظرَتْ إلى خاتمِهَا بفضولٍ لترَى هل فعلًا سيتحوَّلُ لونُهُ عندَ تلقِّيهِ درجاتٍ مختلفةً من الضَّوءِ.

ما هي إلَّا ثوانٍ حتَّى بدأَ يتحوَّلُ لونُهُ من الأحمرِ إلى الأصفرِ، أو ربَّمَا هكذا تهيَّأَ لها.

كان اتِّجاهُ يدهَا مواجهًا لبابِ المقصورةِ الآليّ. لاحظَتْ من خلالِ فتحاتِ أصابعِ يدهَا دخولَ مفتِّشِ التَّذاكرِ. كانَ يمشي بوتيرةٍ رتيبةٍ بطيئةٍ، يتوقَّفُ عندَ كلِّ مقعدٍ مدقِّقًا تذاكرَ المسافرينَ عبرَ جهازِ مسحٍ آليّ.

قبضَتْ يدهَا على هاتفِهَا، ومن خلال بصمةِ الوجهِ فتحَتهُ، دخلَتْ إلى محفظةِ الملفَّاتِ، شعرَتْ بهدوءٍ نَّاعمٍ عندمَا تأكَّدَتْ من وجودِ التَّذكرَةِ. لم تغلقِ الشَّاشةَ، وبكلِّ عفويَّةٍ أجرَتْ مكالمةً مرئيَّةً بأخيهَا، وضعَتْ الهاتفَ بالقربِ من وجهِهَا، ابتسمَتْ بطيبةٍ، حاولَتْ ترتيبَ جملةٍ تبدأُ بهَا المكالمةَ، أغلقَتِ الشَّاشةَ، بعدَمَا انتهَتِ المكالمةُ دونَ ردٍّ.

عادَ نظرُهَا إلى الخاتمِ، رأَتْ لونَهُ قد تحوَّلَ إلى البنفسجِيّ.

خرجَ القطارُ من فيينَّا منذُ فترةٍ وجيزةٍ، ومقصدُ رحلتِهِ المباشرُ هو برلين.

- عفوًا، من فضلكِ، التَّذكرةُ. (قالَ المفتِّشُ).

تفاجأَتْ لقدومِهِ السَّريعِ، نظرَتْ إليهِ بلطفٍ وقالَتْ: بالطَّبع، لحظةً واحدةً!

وضعَتِ الهاتفَ مواجهًا لعينيهَا، لكنَّهُ لم يتعرَّفْ عليهَا. كرَّرَتِ المحاولَةَ دون جدوَى.

- اعذرنِي، سأُحاولُ فتحَ الهاتفِ بكلمةِ السِّرِّ.

ما إن وصلَتْ لنهايةِ جملتِهَا حتَّى أدركَتْ أنَّهَا نسيَتْ كلمةَ السِّرِّ، ربَّمَا مردُّ ذلكَ إلى سببين في الوقْتِ ذاتِه: تخبُّطٌ كبيرٌ في تثبيتِ وحذفِ عدَّةِ كلماتٍ، ثمَّ عدمُ استخدامِهَا الكلمةَ لفترةٍ طويلةٍ.

شعرَتْ مسامِ بشرتِهَا يتعرَّقُ، فقالَتْ بصوتٍ رصينٍ فيهِ شيءٌ من صوتِ مديرةٍ تخاطبُ موظَّفًا جديدًا في الشَّركةِ: الهاتفُ لا يتعرَّفُ

على بصمةِ وجهِي. اذهبْ من فضلكَ وأكملْ عملكَ، وعندمَا تنتهِي عد إلى هنَا، سأكونُ قد وجدْتُ حلًّا للمسألةِ.

شعرَ المفتِّشُ بأنَّهَا صادقةٌ، وأنَّها تملكُ تذكرَةً حقًا، لكنَّ أسلوبهَا الأخيرَ دفعَهُ نحوَ استفزازِهَا، وقالَ لهَا: من فضلكِ أعطِنِي هويَّتكِ. لن أكتبَ مخالفةً بحقِّكِ. كما تعلمِين أنَّهُ مجرَّدُ إجراءٍ روتينيّ فقط.

قالَتْ لهُ بتعجُّبٍ: كيفَ هذَا؟ نحنُ على متنِ رحلةٍ مباشرةٍ! هل سأقفزُ من النَّافذةِ مثلًا! أنتَ تعلمُ أنَّ القطارَ سيصلُ إلى محطَّتِهِ التَّاليةَ بعدَ ساعةٍ من الآن.

توقَّفَتْ عنِ الكلامِ، نظرَتْ لهُ بشكلٍ مباشرٍ، ثمَّ قالَتْ بتحبُّبٍ: إِن سمحَتْ أريدُ وقتًا حتَّى أجدَ حلّاً لأمرِ بصمةِ الوجهِ.

حدَّقَ بهَا، شعرَ أنَّهُ الوحيدَ الَّذي عرفهَا عندمَا كانَت أصغرَ سنًّا بقليلٍ.

أغمضَ عينيهِ بإيماءَةٍ تعبِّرُ عن قبولِ طلبهَا، ثمَّ قالَ لهَا: لكِ كاملُ الوقتِ.

تابعَ تنفيذَ مهمَّةِ التَّفتيشِ، مدقِّقًا بعملِ جهازِ المسحِ الضَّوئيِّ أثناءَ اتِّصالِهِ بتذاكرِ المسافرِين.

تبعثرَ تفكيرُهُ، توقَّفَ عندَ القاعدةِ الصُّلبةِ الَّتي يعملُ ضمنهَا الجِّهازُ، توقَّفَ عندَ إمكانيَّةِ إعطاءِ استثناءٍ من قبلِ موظَّفِ التَّفتيشِ، توقَّفَ عندَ التزامِ حركةِ القطارِ نحوَ الأمامِ وفقَ السِّكَّةِ الحديديَّةِ، توقَّفَ عندَ عدمِ وجودِ استثنَاءٍ يستطيعُ من خلالِهِ السَّائقُ قيادةَ القطارِ خارجَ السِّكَّةِ، توقَّفَ عندَ قدرةِ السَّائقِ على التَّحكُّمِ في حركةِ القطارِ كأنَّهُ يتحكَّمُ بالزَّمنِ، حيثُ يستطيعُ المضيَّ نحوَ الأمامِ، التَّوقُّفَ، العودةَ إلى الوراءِ.

لم يربِطْ أفكارَهُ مع بعضِهَا، لتبدوَ الحالةُ الَّتي عاشَهَا ذهنُهُ، كوعاءٍ فرقعَتْ بداخلِهِ حبَّاتُ فشارٍ.

أنجزَ مهمَّةَ التَّفتيشِ، ثمَّ انتقلَ إلى مهمَّةِ تحضيرِ عربةِ المشروباتِ وبعضِ الأطعمةِ الخفيفةِ.

أثناءَ تحضيرِهِ العربةَ، بدأَ يحفرُ في ذاكرتِهِ ليصلَ إلى لقائِهِ بتلكَ الفتاةِ، وأخيرًا وجدَ أينَ تعرَّفَ عليهَا.

انتابَهُ شعورُ الرَّهبةِ عندمَا أدركَ أنَّهُ لا يعرفُهَا وإنَّمَا اختلطَتْ الصُّورُ في ذهنِهِ، بسببِ الشَّبهِ الكبيرِ بينَهَا وبينَ شخصيَّةٍ كانَ قد نسجَهَا في خيالِهِ في مرحلةِ المراهقةِ، حيثُ كانَ دماغُهُ ينتقلُ من التَّصوُّراتِ إلى المفاهيمِ، كأنَّهُ تربةٌ جافَّةٌ متعطِّشةٌ للماءِ، ويمكنُ القولُ إنَّ القراءةَ في الأدبِ ساعدَتْهُ في ترطيبِ تربتِهِ.

في تلكَ المرحلةِ قرأَ عناوينَ مختلفةً، من ضمنِهَا روايةُ التَّحوُّلِ لكافكا، وأكثرُ شخصيَّةٍ رسمَ ملامحَهَا في مخيِّلتِهِ كانَتِ الأختَ الصُّغرَى لـ غريغور سامسا الشَّخصيَّةُ المحوريَّةُ الَّذي تحوَّلَ إلى حشرةٍ عملاقةٍ بعدَ فترةِ عملٍ طويلةٍ داخلَ القطاراتِ.

يبدُو أنَّ هذَا اليومَ يحملُ معَهُ سحرَهُ الخاصَّ، فقد تدفَّقَ مجرَى الماضِي على متنِ هذِهِ الرِّحلةِ، فلم يصادِفْ مثلَ تلكَ الفتاةِ بشدَّةِ ابتعادِهَا عن الواقعِ، وقربِهَا من خيالِهِ.

تحرَّكَ بالعربةِ، قدَّمَ طلباتِ المسافرِينَ بشكلٍ آليٍّ، واضعًا ذهنَهُ في حالةِ جنوحٍ عالٍ في الخيالِ، ليرَى بنفسِهِ أنَّهُ أحدُ زملاءِ سامسا، رغمَ إدراكِهِ أنَّ زميلَهُ قد تلاشَى منذُ مئةٍ وعشرِ سنواتٍ، ولم يبقَ منهُ شيءٌ سوَى قصَّتِهِ.

صحيحٌ أنَّ كافكا بذاتِهِ لم يضعْهُ ضمنَ روايةِ التَّحوُّلِ، كأحدِ زملاءِ سامسا، لكنَّ هذا لم يمنعْهُ من تصوُّرِ نفسِهِ أنَّهُ الشَّخصيَّةُ النَّاقصةُ في العملِ الرِّوائيِّ.

أنجزَ مهمَّةَ العربةِ بلمحِ البصرِ، وما هي إلَّا لحظاتٌ حتَّى تحرَّكَ نحوَ مقعدِ أختِ زميلِهِ كما سمَّاهَا.

كانَ قد حضَّرَ سيناريو بما سيحدُثُ. توقَّفَ بالقربِ منهَا، ليرَى نظرتَهَا تتَّجهُ نحو شعرِهِ المجعَّدِ الأسودِ، ثمَّ تقولُ لهُ: أعطِنِي مخالفةً؛ الهاتفُ يعانِي من مشكلةٍ.

- لماذا لمْ تعتنِي بِهِ، ربّما لو فعلْتِ لكانَ تعرَّفَ عليكِ!

استغربَتْ بشدَّةٍ من سؤالِهِ وقالَتْ: عفوًا، ماذا تقصدُ؟

- أقصدُ، استخدمْتِهِ كثيرًا. أنتِ تعتمدينَ على أخوكِ الكبيرِ بكلِّ شيءٍ.

قالَ المقطعَ الأخيرَ من جملتِهِ بصوتٍ واضحٍ، لكنَّ دخولَ القطارِ في نفقٍ قصيرٍ؛ حالَ دونَ وصولِ مقصدِهِ لأختِ زمِيلِهِ سامسا،

كما كانَ يراهَا في تلكَ اللَّحظةِ المبتعدَةِ قليلًا عن الوهمِ، والمقتربةِ كثيرًا من الخديعةِ.

ردَّتْ عليهِ بنبرةٍ عاليةٍ، كي تمنعَ ضجيجَ النَّفقِ من الوقوفِ في وجهِ مقصدِهَا:

- هذا لَا يعنِيكَ! ما علاقتُكَ أنت؟ (خرجَ القطارُ من النَّفقِ) أعطِنِي المخالفةَ؛ ولننتهِ من هذهِ المسألةِ.

- حسناً، من فضلكِ، الهويَّةُ، حتَّى يتسنَّى لي كتابةُ المخالفةِ.

ضحكَتْ في سريرتِهَا من سخريَّةِ القدرِ، فهيَ تعلمُ أنَّ كاملَ وثائقِهَا مصوَّرةٌ، وموجودَةٌ داخلَ الهاتفِ.

قالَتْ وهِي توسِّعُ عينيْهَا، وتنفخُ قليلًا بخدَّيهَا، كطفلةٍ صغيرةٍ أضجرَهَا الموقِفُ:

- هويَّتِي ليسَتْ معِي...

توقَّفَتْ عن الكلَامِ، شعرَتْ بقليلٍ من الضِّيقِ عندَمَا أدركَتْ أنَّهَا لمسَتْ شيئًا من اعتمادِهَا الكبيرِ على الهاتفِ.

فهمَ المفتِّشُ الموقفَ، فابتسمَ كالسَّاحرِ قبلَ قيامِهِ بسحرِهِ، وبدأَ يخلطُ بينَ يديهِ بعضَ أوراقِ المخالفاتِ السَّابقةِ، ثمَّ قالَ من دونَ أن ينظرَ إليهَا بشكلٍ مباشرٍ، ليبدوَ بالفعلِ ساحرًا متكلِّمًا أثناءَ خلطِهِ لأوراقِ سحرِهِ:

انتهَى الأمرُ. لن أكتبَ بحقِّكِ مخالفةً. لكن تذكَّري أنَّ هذا الهاتفَ المتَّكلُ عليهِ من قبلِ الجميعِ، ما هوَ إلَّا مجرَّدُ أداةٍ.

(وضعَ الأوراقَ في محفظتِهِ الصَّغيرةِ)

أو لنوسِّعَ المقصدَ قليلًا بالقولِ إنَّ هذا البرغيّ سامسا الَّذي كانَ يعملُ داخلَ القطاراتِ، قد تحوّلَ لمجرَّدِ حشرةٍ لا نفعَ لها، وما كانَ منَّا سوَى غضِّ النَّظرِ عن قصَّتِهِ من دونِ أدنَى وعيٍ، إلَّا أنَّهُ ينتظرُنَا المصيرُ ذاتُهُ في حالِ تأقلمِنَا مع العيشِ كأدواتٍ تستخدِمُ أدواتٍ تحافظُ على رخاءِ قلَّةٍ قليلةٍ تملكُهَا.

نظرَتِ الفتاةُ إليهِ بفمٍ نصفُهُ مفتوحٌ، تملَّكَتهَا رغبةُ الرَّدِّ على خطابِهِ بكلمَةٍ واحدةٍ، لكنَّهَا لم تعثرَ عليهَا، أغمضَتْ عينيهَا قليلًا، بدأَتْ تشعرُ بحركةِ القطارِ، أخذَتْ شهيقًا عميقًا تزامنَ مع دخولِ

القطارِ نفقًا قصيرًا، حتَّى خرجَ منهُ مثلمَا كانَ يخرجُ من صدرهَا الزَّفيرُ.

فتحَتْ عينيهَا، أدركَتْ أنَّ المفتِّشَ قد تلاشَى.

رفعَتْ يدَهَا، نظرَتْ إلى خاتمِهَا بفضولٍ لترَى أنَّ لونَهُ لا يزالُ أحمرَ.

انتظرَتْ بفارغِ الصَّبرِ وصولَ القطارِ إلى محطَّتِهِ الأخيرةِ، بالفعلِ اقتربَ منهَا، دخلَ برلين، نظرَتِ الفتاةُ إلى المدينةِ عبرَ زجاجِ النَّافذةِ، شعرَتْ بأنَّ القطارَ قد توقَّفَ في مكانِهِ، ولم تعدْ لديْهِ إمكانيَّةُ الحركةِ كأنَّهُ بناءٌ إسمنتيٌّ مستطيلٌ، أمَّا مدينةُ برلين فبدَتْ خارجَهُ، كأنَّهَا قطارٌ يتحرَّكُ نحوَ الأمامِ.

كتبت القصة في فترة زمنية تقع بين

ربيع عام 2020 / صيف عام 2022

النمسا – فيينا

تحولات غير مؤكدة

قصة تناثرت بين برلين وفيينا

حسين خضور

"حين قرأت كتاب حسين خضور رأيت بين السطور عزيمة المبدعين من بلادي الذين لا يقفون دون أن يصنعوا لنا الجمال، ولو قلّ طالبوه، أو تم هجرانهم وإعلان القطيعة المجتمعية والثقافية بينهم وبين محيطهم. تؤكد قصة تحولات غير مؤكدة على تورط الإنسان الحديث بربط حياته كلها في شيء غير مضمون قد يخونه بأي لحظة، أو في وهم يستنزف إدراكنا ومشاعرنا لنتفاجأ عند أول مواجهة حقيقية بالخذلان والعجز. هنا يضع حسين خضور القارئ، دون أن يشعره بذلك، أمام حقيقة لا بد من مواجهتها ويترك له الاحتمالات مفتوحة والقرار بيده." (بشر شبيب)

MATIA